بين ماضينا وحاضرنا

بقلم الدكتور محمد عبد المنعم رياض بك

مدنيتان :

ها نحن أولاء نشهد منظرا لعله الأخير من مناظر الصراع بين مدنيتين ، إحداهما مادية صرفة والأخرى أدبية معنوية .

ولقد تنبأ الكاتب الانجليزى ويلز فى رواية وضعها قبل الحرب بأن المدنية الحالية — وهى التى أسميها مادية — ستندثر إثر تطاحن شديد بين دول الغرب ، وتقوم مقامها مدنية جديدة تبزغ من الشرق فتبث فى العالم مبادئ جديدة ، وطرازا من العلوم جديدا ، ويتطور تفكير الناس ويتخذون نظما أخرى فى الملبس وفى الحياة ، ومضى الكاتب فى التنبؤ حتى قال إن الجيل الجديد ينجح فى الوصول الى القمر والأجرام السماوية . إذ لا تكفيه الأرض وما عليها .

وقد نشبت الحرب الحالية فوضعت أوربا فى " بوتقة " ربما كان من نتائجها أن ترجع أوربا الى اتزانها ، وتنتقل من مدنيتها الحاضرة الى أخرى أفضل وأجدى على الانسانية .

لقد قامت المدنية الأوروبية الى اليوم على الناحية المادية ، فالاختراعات جعلت فى متناول أيدينا كثيرا مما كان مستحيلا عليها بالأمس . وصار الانسان يطير ويتكلم عبر الجبال والبحار ويرى خلال المسافات الشاسعة ، وقد أوفت الحياة المادية على الغاية ، فنسى الناس أو تناسوا العنصر المعنوى أو الروحى ، ذلك العنصر الذى تعتبره شرائعنا السماوية أهم عناصر الاجتماع . فتعاليم الأديان تنادى بأن الحياة الروحية هى التى توفر السعادة والهناء وتقرب الانسان من الله .

والحياة المادية البعيدة عن الروح هى التى تؤدى الى الطمع والسلب ، وتدعو الناس الى الاقتتال فالفناء .

ديون الغرب على الشرق :

تلك التعاليم الطيبة المستمدة من وصايا الأديان كان الشرق أسبق من الغرب الى معرفتها والعمل بها ، فلنعد اليها لنرد السعادة الى مجتمعنا والطمأنينة الى نفوسنا .

ألم يكن من تعاليمنا أن يحب المرء لأخيه مايحب لنفسه ؟ وهلا نسمع الآن أن قواعد الاجتماع الحديثة تقضى بأن الفرد للكل والكل للفرد ؟ فلا أنانية ولا أثرة ، وأن أفضل الخير ما كان للمجتمع والإنسانية كلها لا للفرد وحده ؟ فالعلماء والباحثون الذين يستكشفون كل يوم وسائل تخفيف الويلات والعلل التى تصيب الناس إنما ينقبون وينصبون لإسعاد العالم وأهله ، فهلا نأخذ عنهم هذه الروح الطيبة فنخرج للدنيا علماء وحكماء يدلونها على طريق الهدى ، ويحققون مابتابها من المصائب والخطوب .

وقديما كانت الأمة العربية هى المنارة التى أضاءت العالم . ألم يكن من آثار اختلاط الغربيين بالشرقيين فى عصور مختلفة ، آخرها عصر الحروب الصليبية أن أخذوا كثيرا من الحضارة الشرقية ولاسيما الفنون والصناعات والعلوم الرياضية ، ونقلوا الكثير من الكتب العربية ومن الصناعات النفيسة كصناعة الحرير والسكر والورق وطريقة استخدام الريح فى تحريك الطواحين الهوائية ؟ ألم يقتبس أهل أوربا من بلاد الأندلس فى عهد العرب علوما وآدابا مختلفة ، فكانت الأندلس ينبوعا لحضارة أوربا الحديثة ، وأهلها هم الذين ساعدوا على نشر الطب وقد أشاد التاريخ بكثير من أعلامهم كأبى القاسم الجراح الذى كان من أكبر جراحى القرن الحادى عشر ، والذى استخدم فى الجراحة طرقا تماثل الطرق الحديثة . وابن زهروان البيطار ، الذى بحث علم النبات واستنبط إثر أسفاره ورحلاته الطويلة أنواعا متعددة من النبات وبحث خواصها وفوائدها . أما العلوم الفلسفية والأدبية والاجتماعية فكان للعرب فيها القدح المعلى سواء فى ممالكهم الشرقية أو فى الأندلس . فابن خلدون وابن رشد والإدريسى الرحالة الجغرافى ، كل أولئك وسواهم كانوا الأئمة الذين أخذ عنهم الأوربيون مبادئ الفلسفة والاجتماع والجغرافيا وغيرها ، بل لقد كان للأندلس العربية أكبر الفضل فى إدخال الشعر والموسيقى الى أوربا ، إذ كان الشعر جاريا على ألسنة كل الطبقات هناك ، وكذلك الموسيقى والأغانى ، فأخذ الطلبة الأوربيون الذين توافدوا على الأندلس لينهلوا العلم من حياضها يقلدون العرب وينقلون الى مواطنيهم أفانين الشعر والموسيقى ، ومن هؤلاء البابا سلفستر الثانى الذى أقام فى إشبيلية ثلاث سنوات وحض قومه على الارتحال الى مدارس الأندلس لينقلوا علمها الى بلادهم .

فاذا كنا قد أضعنا الكثير من مجدنا الأول فقد آن أن نستعيده ولا عيب اذا اقتبسنا من أوربا الحديثة أحسن ما نجده فى مدنيتها الحاضرة ما دامت قد أخذت عنا من قبل، وبذلك تكون بضاعتنا قد ردّت الينا .

المرأة بين مختلف الاتجاهات :

إن أول ناحية أوجه النظر اليها هى ناحية المرأة ، لأنها هى العماد الحقيق الذى لا تقوم المجتمع قائمة بدونه . فما الذى تستطيع المرأة المصرية أن تقتبسه من زميلتها الغربية ؟ قد يظن بعض السيدات أن أول ما يجب اقتباسه هو أفضل وسائل التجميل وما يلائم البشرة المصرية من الأصباغ والعطور ، ويؤسفنى أن أخيب هذا الظن فاقول إن المرأة الأوروبية أبعد ما تكون عن هذا النوع من المدنية إن صح أن يسمى مدنية .

قرأت مقالا لكاتبة غربية تقول فيه إنها تدهش كيف يمكن أن تجد السيدة وقتا لتطبع فيه ذلك الوجه الصناعى الذى تتنكر به عند ما تضع تلك الأصباغ وما اليها لتجمل نفسها. قد يظن بعض السيدات أيضا أنهن يستطعن تقليد الأوربية فى الأزياء الحديثة التى تطول أو تقصر حسب الأحوال . كلا هذه أيضا ناحية تخطئ سيداتنا فى اقتباسها . ولست انهى المرأة عن أن تتحلى بزى جميل، بل بالعكس أرى أن اختيار الملابس الملائمة هو فن يجب أن تحذقه السيدة ولكن بودى أن تترك السيدة المصرية تقليد الأزياء الأوربية تقليدا لا ابتكار فيه . بودى أن تفكر السيدات المصريات فى زى يتفق مع تقاليد بلادنا ومع وجودنا ومع ماورثناه من خفر وحياء .

وإذا كنت أنهى سيداتنا عن تقليد المظهر واللباس الأوربى تقليدا أعمى فلعلهن ينتظرن أن أشير باقتباس بعض آثارا لحركة النسوية التى ترمى الى اشتغال المرأة بأعمال الرجال . كلا، هذا أيضا لا محل لتقليده، بل إنى لأعتقد أن فكرة ترك المرأة لوظيفتها الأصلية وهى الأمومة الصحيحة وقيامها بأعمال لم تخلق لها قد أصبحت فكرة عتيقة فى أوربا ذاتها . وهناك عدة مظاهر لهذا التطور، ففى بلاد عديدة تدخلت الحكومات لإبعاد المرأة عن الأعمال العامة وقصرها على العمل فى دارها . وفى فرنسا لاتزال المرأة محرومة من حق الانتخاب . وفى انجلترا التى أعطت النساء حق الانتخاب لا يزال عدد النساء اللاتى ينتخبن فى البرلمان قليلا جدا وهو يتناقص تدريجيا ، إذ كثيرا ما نرى فى الأحوال التى يعاد فيها الانتخاب فى دائرة كانت تمثلها المرأة أن ينتخب بدلا منها رجل . وفى جميع البلاد التى أباحت تولى المرأة بعض المهن كالطب والمحاماة وما اليها لم ينجحن فى هذه المهن بل لا يزال عددهن غاية فى الضآلة .

المرأة للبيت أولا :

هنالك مظهر آخر يدل على تطور الأفكار فى أوربا بالنسبة لوظيفة المرأة وهو أن جائزة نوبل الأولى فى العام الماضى منحت لمؤلفة رواية "الأرض الطيبة" وهى رواية تدور كلها حول امرأة قصرت جهودها على دارها وأولادها وزوجها فتولت تربية الأولاد والعناية بالزوج وبالدار والأرض ، حتى اذا حاد الزوج عن جادة الصواب دب الفساد بين الأولاد ، وحدث الخراب الدار والأرض كانت هى القوة الباقية التى لا تفتر ولا تضعف فأعادت الزوج الى الطريق السوى وأبعدت الأولاد عن طريق الغى ، وأنقذت الدار والأرض من الخراب والدمار ولم تقصد المؤلفة بالأرض الطيبة إلا المرأة الطيبة التى تنبت النبت الحسن وتخرج أبرك الثمرات . أليس فى إعطاء جائزة نوبل لمن ينادى بهذا الرأى ما يدل دلالة واضحة على أن أوربا الحديثة لم تعد تدين بفكرة نزول المرأة الى كل الميادين بل عادت الى الفكرة التى يعتقد الكثيرون أنها قديمة والتى ترجع بالمرأة الى وظيفتها السامية الأولى . لماذا لا تأخذ سيداتنا وهن على ما نعلم من رجاحة العقل ، بالتجارب التى مرت فيها أوربا ؟ لماذا نصر على أن نمر فى التجربة بأنفسنا ولا نتعظ بما أصاب غيرنا فنكسب بذلك وقتا أضاعته البلاد الأوربية فى تجربتها . لم لا نبدأ من حيث انتهت هذه البلاد بدلا من أن نعيد ما ثبت فشله فى الجهات الأخرى ؟ اذا كان للمرأة المصرية أن تقتبس من زميلتها الأوربية فلتقتبس شيئا أهم بكثير من المظهر والملبس والقيام بأعمال الرجال وغير ذلك من تافه الأمور . أجل ! حتى أعمال الرجال هى بالنسبة للمرأة تافهة فان مهمتها أبعد أثرا . أليست هى التى تعد الرجال الذين يستطيعون أداء هذه الأعمال على خير وجه ؟ لتقتبس المرأة المصرية الصفات التى تتحلى بها المرأة الأوربية والتى تستطيع بها أن تكون شريكة تخفف من عبء الحياة وعونا على الزمن وملماته لا عبئا يثقل كاهل الرجل . كم من رجل فى أوربا استطاع أن يؤدى أجل الخدمات لبلاده بل للانسانية لأن امرأة خلفه تشجعه اذا تطرق اليأس الى قلبه وتعينه اذا ضعفت أو فترت همته وتواسيه اذا احتاج للمؤاساة .

فضل النساء فى جهود الرجال :

فباستور العالم الفرنسى الذى أنقذ الانسانية من أمراض فتاكة كان أكبر عون له امرأة صالحة بجانبه ، وغلادستون الوزير الانجليزى الذى كان أكبر من ساعد على رفعة الأمبراطورية البريطانية فى العهد الأخير قال عند ما أراد البرلمان الانجليزى أن يمنحه أعلى مراتب التقدير إن زوجته أولى منه بذلك ، لأنه لولاها ما استطاع أن يخدم بلاده تلك الخدمات الجليلة الصادقة و"جراهام بل" مخترع التليفون ، لم يكن ليخترعه لولا امرأة كانت خطيبته ثم اقترنت

به وأخذت تشجعه وتدفعه دفعا الى إتمام اختراعه فى وقت كاد اليأس يثنيه عن السير فيه .
قرأت فى مقدمة كتاب كتبه اللورد جراى الذى تولى وزارة الخارجية البريطانية مدة طويلة (وقد كتب هذا الكتاب بعد أن فقد بصره) أن الفضل الأول فيما كتبه يعود الى امرأته فلولاها لما استطاع أن يكتب شيئا . أذكر أيضا أنه حدث فى السنوات الأخيرة أن أحد وزراء بريطانيا اضطر للاستقالة بسبب فضيحة نشأت من تسرب أسرار الميزانية البريطانية. أعجبنى أن يقول هذا الرجل فى محنته إنه مطمئن البال لأن زوجته لا تزال تثق به . قارنت هذا بما نسمعه فى بلادنا بين حين وآخر من أن زوجة تركت زوجها لكارثة أصابته ، أو لفقره ، أو لأقل من ذلك كنقله من مدينة الى جهة ريفية ولو كانت قريبة ، وذكرت قضية زوجة كانت تستطيع مد يد المعونة لزوجها فى محنة أصابته وكانت موسرة وفى مقدورها انتشاله خصوصا وقد عاشا معا زمنا طويلا ورزقا بنين وبنات ولكنها آثرت أن تضن عليه بدراهم لا تسمن ولا تغنى فلم يجد الرجل سبيلا الا الانتحار ففقدت بأنانيتها وجحودها رجلا شاركها الحياة زمنا طويلا وجنت على أولادها الأبرياء ، قارنت هذا بالمثل الأعلى الذى أتخيله للمرأة فى ميدان التضحية وإنكار الذات ، ولكن لم يتطرق اليأس الى نفسى فنبت المرأة المصرية طيب وكل يوم نرى أمثلة تدل على أنها تنشد المثل العليا ، وأنها متى أعدت إعدادا طيبا فإنها تخرج لبلادها رجالا نابهين نافعين يسمون بالوطن الى أعلى عليين .

ألمراة والخدمة الاجتماعية :

هنالك ميدان فسيح تستطيع المرأة المصرية أن تنافس فيه زميلتها الغربية ، وهو ميدان الخدمة الاجتماعية . ولقد خلق للمرأة وخلقت له ، وما الخدمة الاجتماعية إلا انقاذ الناس من البؤس بمختلف أنواعه وارشادهم الى سبيل الهناء ، أذكر كلمة للكاتب الأمريكى مارك توين ذكر فيها أن الهناءة تحتاج الى من يتقاسمها مع الانسان لكى تكون أعمق أثرا ، فهل هناك غير المرأة لتنشر السعادة إذ هى التى تستطيع ببشرها ورقتها أن تقاسم الناس السراء ، ثم هى إذا قاسمتهم الضراء فانها تخفف عبئها وتجعل الناس أقدر على احتمالها ، وميدان الخدمة الاجتماعية واسع لا حد له ، فالمرأة فى دارها تؤدى أجل خدمة اجتماعية إذا أسعدت زوجها وأشرفت اشرافا صحيحا على تربية أولادها . وفى الحى الذى تقيم فيه تقوم بأجل عمل اجتماعى ، بل تكون ملك رحمة اذا جعلت من واجباتها اليومية تخفيف آثار البؤس والمرض والفاقة ما استطاعت الى ذلك سبيلا. كم من امرأة فى بلاد الغرب تشتغل فى أعمال البر والخير والاحسان ؟ إنى لا أبالغ اذا قلت إن هذه الأعمال أصبحت من اختصاص النساء وحدهن فقلوبهن الرحيمة ، وأياديهن الرقيقة تجعلهن خير من يتولى هذه الأعمال . ألم تبدأ أعمال التمريض والعناية بالجرحى والمرضى فى الحروب على يد سيدة كريمة كانت تسمى بالملك الأبيض أو السيدة ذات المصباح وهى " فلورنس

"بتنجيل" فهى التى فكرت فى حالة الجرحى الذين يتركون فى ميادين القتال تدوسهم الخيل بسنابكها والجيوش بعددها، وانتهزت قيام حرب القرم فذهبت الى ساحة القتال وجعلت تسير بين الخطوط باحثة عن الجرحى والمرضى لتنشلهم وتتولى الاشراف على نقلهم الى مكان تضمد فيه جروحهم، ولم يكن ظلام الليل ولا زمهريره ليقف حائلا دون قيامها برسالتها المقدسة فكانت تحمل مصباحا لينير لها الطريق بين الصفوف ، هذا الملك الكريم لم يكن غير امرأة هى التى أسست صرح الصليب الأحمر والهلال الأحمر للعناية بالجرحى والمرضى فى الحروب وفى غير الحروب .

الرجل ونصيبه فى خدمة المجتمع :

لندع المرأة جانبا، ولننظر إلى الرجل وماذا يستطيع أن يقتبس. لا أريد أن أشير إلى الميادين العديدة التى يستطيع فيها أن يتتبع خطى الأوروبيين ، فهذا أمر يطول شرحه ، ولكن أريد أن أشير إلى ناحية واحدة قد تصل بنا إلى الطريق الذى سلكه الأوروبيون ، هذه هى ناحية التفكير. فالتفكير كما يقول كاتب فرنسى حديث هو فن من الفنون . والتفكير الحسن المتزن هو الذى يؤدى إلى النجاح، وينقذ الانسان من أحرج المواقف. وانى اعتقد أن من أكبر عيوبنا فى مصر أننا لا نحسن التفكير. لا أنكر أن فينا من يقرأ كثيرا ولكن ليس فينا كثيرون يتئدون فى قراءتهم حتى يستطيعوا هضم ما يقرأون وتحليله ومقارنته بما يكابدون من تجارب وما لديهم من معلومات، ليس فينا من يستفيد حقيقة مما يقرأه أو يشاهده فى بلاد سارت شوطا بعيدا فى المدنية كالبلاد الأوروبية . والوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها مجاراة هذه البلاد هى أن نستوعب ما يصل إلى علمنا من جهودهم فى الفنون والعلوم ، ونفكر فيه تفكيرا هادئا لنخرج منه ما نستطيع تطبيقه فى بلادنا. وقد قرأت اقتراحا فى هذا الشأن يشير إلى أن الوسيلة الوحيدة لتنظيم التفكير هى كتابة ما يعن للانسان على أثر مطالعاته أو مشاهداته . فالكتابة تنقى التفكير وتهذبه، وتقوى الملاحظة فتجعل الفكر خصبا يثمر أحسن الآراء، وهى تساعد الانسان على حسن التعبير بدون تردد حتى إنهم يقولون إن أكبر قادة العالم الحديث كانوا من أتباع هذه الطريقة . فقد روى أن الفيلسوف داروين كان من عاداته أن يسطر دائما كل ما يجده من الآراء الحديثة خصوصا إذا كانت لا تتفق مع وجهات نظره، واستيفنسن المخترع الكبير الذى يرجع إليه الفضل فى اختراع السكك الحديدية كان يحمل دائما معه كتابين أحدهما يقرؤه والآخر يكتب فيه، ونابليون كان إذا خطر له خاطر ودو على جواده خطه على سرواله حتى لا ينساه، فعملية الكتابة ذاتها تثبت الفكرة فى الرأس وتمكن الانسان من وزنها واختيار الصالح منها ، وتنظيم التفكير يؤدى بنا إلى تنظيم القراءة .

ولعل أكبر بواعث النقص فى تفكيرنا هو قلة إقبالنا على القراءة، والدليل على ذلك ما نراه من ضعف رواج المؤلفات فى بلادنا مهما كانت مفيدة مع أن الكتب النافعة فى أوربا

تطبع منها عشرات الآلاف بل مئات الآلاف ثم يعاد طبعها وتنفد كلها فى زمن وجيز . فالمفكرون فى أوربا وأصحاب المهن من أطباء ومحامين ومهندسين وغيرهم يطلعون دائما على كل ما يجد فى فنونهم ويقرأون ما يصدر من كتب علمية أو أدبية بعكس الحال عندنا ، إذ لا صبر لنا على القراءة والاطلاع ، وإذا قرأنا واطلعنا فاننا نفعل ذلك بصفة سطحية لا تعمق فيها ، وانى لأرجو المعذرة إذا عدت هنا إلى الحديث عن المرأة فإنى أعتقد أنها هى التى تشجع على القراءة والاطلاع .

عود إلى فضل المرأة :

سمعت مرة من أحد الأدباء الأوربيين الذين دعتهم الحكومة لبحث بعض النواحى الأدبية فى مصر أنه لاحظ أن الأدب المصرى لا يزال فى مهده ، وأن الكتب الأدبية المصرية ليست كثيرة فى مصر ، والقليل الموجود منها ليس له الرواج الذى تجده كتب الأدب فى أوربا . وكم آلمنى أن أسمعه يسأل ألا تقرأ المرأة فى بلادكم ؟ إنها فى أوربا أكبر مشجع على التأليف والتصنيف ، فهى تقرأ بنفسها ، وتشجع زوجها وأولادها وكل من حولها على القراءة ، وإذا اخرجت المطابع كتابا حديثا كان موضع النقاش والبحث فى المجتمعات وبين جدران البيوت .

خاتمة فى الأسرة :

وما دمنا قد تحدثنا عن نصيب كل من الرجل والمرأة فى خدمة المجتمع فقد وجب أن نتحدث عن الأسرة إذ هى الرجل والمرأة وما ينجبان . ولعل أول ما يخطر ببال المصلح المصرى فى هذا الصدد التساؤل عن سبب تفكك روابط الأسرة فى بلادنا على عكس ما نرى فى أوربا فالأسرة هناك متماسكة وأفرادها متعاونون تربطهم أواصر قوية من المحبة والوئام .

إن الأسرة لدينا متناثرة لا تربطها رابطة ، فالزوج فى ناحية والزوجة فى ناحية أخرى ، والأولاد حيرى بينهما ، فاذا أنا ختمت كلمتى بالدعوة إلى زيادة الارتباط فى عائلاتنا كما هى الحال فى أوربا فليس ذلك لأن هذه الناحية قليلة الأهمية حتى أذكرها فى آخر كلمتى ، بل لأنها فى نظرى أهم ما يجب اقتباسه من بلاد أوربا الحديثة إذا أردنا أن نصل بوطننا إلى المكانة التى وصلت إليها هذه البلاد ، فالأسرة المتحدة القوية باتحادها هى أساس الدولة المتحدة المنيعة الجانب . فاذا تكونت لدينا الأسرة متحدة متعاونة وجدت القرية المتحدة التى يجمع التعاون بين أهلها فيعملون يدا واحدة على تحسين حالهم ، ورفع مستواهم ، وتقليل البؤس والشقاء بين ظهرانيهم ، وإذا وجدت القرية المتحدة المتعاونة وجد الاتحاد والتعاون فى كل وحدات الأمة وأصبح الكل كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . ويد الله مع الجماعة .

محمد عبد المنعم رياض